المؤسسة الإسلامية للتربية والتعليم
مدارس المهدي

لنذق طعم حلاوة ضيـــــافـــة اللّه

الشيخ علي رضا بناهيان

iiet.edu.lb

باسمه تعالى

المصدر: كتاب «مدينة الله؛ شهر رمضان وأسرار الصيام»

كيف ينبغي أن يكون شعورنا تجاه شهر رمضان؟

إنّ هذا الشهر المبارك مع ما ينطوي عليه من روعة وجمال، والذي دعانا إلى ضيافة الله، وجعل الله مُضيفنا، كيف ينبغي أن يكون شعورنا تجاهه؟ وبأيّ قلب علينا أن نستقبل رمضان؟ فمع وجود كل هذه الوعود الإلهية الرائعة في هذا الشهر، هل ينبغي أن نستقبل شهر رمضان بشوقٍ وفرحٍ وحسب؟ أو أن للخوف والخشية محلًا في البين؟

لا يخفى أنّ أول ما يتبادر إلى القلب هو شعور الاغتباط والسرور بلذّة توفيق الحضور في مثل هذه الضيافة الكريمة. ولكن كلّما كان الشوق مصحوبًا بالخوف، سبقه الخوف في إظهار نفسه وكأنه يطلب من الإنسان أن عالج الخوف وأرح بالك منه أوّلًا، ثم أسرع إلى شوقك. وأنتم تعلمون جيدًا أن الخوف إنّما ينبثق من القلب الشائق وإن الشوق هو الذي يفرض على الإنسان الخوف من المخاوف والمخاطر وأنّ لا بدّ من معاملتها بكلّ حكمة وعقل.

هيبة شهر رمضان

نحن إنْ كنّا قد صدّقنا الحضور بين يدي المُضيف في هذه الضيافة، وأدركنا عظمة ربّ شهر رمضان، سيعتري قلبنا الخوف - بلا شك - من سوء الأدب في هذا المجلس العظيم، إضافة إلى شعور الاغتباط إثر هذه الضيافة. كما أنه قبل الاستعداد للحضور في هذا الحفل العظيم، ستعترينا الرهبة من تجلّي كل هذه العظمة أمام وجودنا الحقير.

ألم يقل الإمام السجاد(ع) في دعاء وداع شهر رمضان: «وَ[ما] أَهْيَبَكَ فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ» [الصحيفة السجادية/ الدعاء 45] فمن أين أتت هذه الهيبة؟ من الواضح أنّها ناجمة من التقرّب إلى محضر ربّ العالمين، وإمّا ناشئة من أهمية مراعاة آداب شهر رمضان وأداء أعماله، لئلّا يتعدّى الضيف الأدبَ على ساحة القدس الربوبي أو على مجلس ضيافته الكريم.

عندما كان رسول الله(ص) يتحدّث مع جابر بن عبد الله عن بركات شهر رمضان، عرّج على شروطه وآدابه وقال: «يا جَابِرُ هَذَا شَهْرُ رَمَضَان مَنْ صَامَ نَهَارَهُ وَقَامَ وِرْدًا مِنْ لَيْلِهِ وَعَفَّ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ وَكَفَّ لِسَانَهُ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَخُرُوجِهِ مِنَ الشَّهْر» فاستترّ جابر من ثمرات شهر رمضان وبشاراته وقال: «يا رَسُولَ اللّهِ مَا أَحْسَنَ هَذَا الْحَدِيثَ» فأجابه النبي(ص) وقال: «يا جَابِرُ وَمَا أَشَدَّ هَذِهِ الشُّرُوطَ» [الكافي، ج4، ص87، باب أدب الصائم، ح 2] ففي الواقع أراد النبيّ(ص) أن يلفت نظر جابر إلى أهميّة شهر رمضان وخطره. ولا شكّ في أنّ النبيّ(ص) يريد من أتباعه أن يكونوا في هاجس مراعاة آداب شهر رمضان أكثر من البهجة والتمتع ببركات هذا الشهر وبشاراته.

عدم التراخي في مجلس الضيافة

من شأن كلمة «الضيافة» أن تلفتنا إلى بعض أوجه الصعوبة في شهر رمضان. لأنّ الإنسان بطبيعة الحال لا يمكنه أن يسترخي ويكون على راحته في مجلس الضيافة - حتى وإن كان زاخرًا بالعطايا - كما إذا كان في بيته، ولذلك وبسبب اقتضاءات مراعاة الأدب، يعاني من بعض القيود التي لا وجود لها في بيته. مهما كان مجلس الضيافة ممتعًا ومريحًا للإنسان مع ذلك لا يسعه أن يفعل كلّ شيء، وبقدر أهمّية المجلس وشموخه، ينشغل الإنسان عن راحته بالانتفاع من هذا المجلس.

الخوف من فقد فرصة شهر رمضان الذهبية

أليس شهر رمضان فرصة ذهبية؟ أولسنا بحاجة وشوق شديدين إلى هذه الفرصة؟ إذًا لا بدّ أن نخشى ذهاب هذه الفرصة وعدم انتفاعنا بها. كلما كانت هذه الضيافة أعزّ علينا يزداد خوفنا من ضياعها وتعترينا الهواجس والأسئلة، من أن: هل سأنتفع بشهر رمضان بأفضل انتفاع؟ أم سأكون في شهر رمضان المبارك من زمرة الذين لا يكون نصيبهم فيه سوى الجوع والعطش؟ وهل ستلبّى احتياجاتنا الكثيرة في هذا الشهر؟... وغيرها من الأسئلة الكثيرة التي تتبادر إلى المشتاقين وأولي الهمم العالية. إلا اللهمّ إذا كنّا مُتخَمين بالنّعم المعنوية وأصبحنا غير مضطرّين إلى المزيد منها وأصبح شهر رمضان لنا شهر نزهة وتغيير جوّ فعند ذلك سنكون بغنى عن هذا القلق. لكن عندما نرى أولياء الله يلتمسون ويتضرّعون إلى الله من أجل كسب ذرة من عنايات الله سبحانه، والحال أن كسب رضا الله ليس بأمر عسير عليهم، فتكليف باقي الناس معلوم.

ولكن من باب ذكر شيء في هذا المقام، أقول إنّ حالنا لا يخلو من حالين: فإمّا لسنا من أهل العرفان والعبادة، فعند ذلك من الواضح سنكون مضطرّين ومحتاجين، وإن لم نشعر بذلك نحن. وإن كنّا من أهل ذلك، فمن المؤكد قد أصبحنا من المحبين إلى مناجاة الله

واكتساب عنايته بحيث نصبح متعطّشين إلى نيل المزيد من ألطاف الله ورحمته.

فإذًا اسمحوا أن نستعرض عبر عبارات واضحة بعض هواجسنا:

1. نقصان ما ننجزه من عمل

أولا يودّ الصالحون من الناس أن ينجزوا جميع أفعالهم بشكل جيّد. فإذا أنجزوا فعلًا ما لا يحبون أن يكون ناقصًا ومليئًا بالعيوب. وشهر رمضان من كل سنة عبارة عن فعل وأثر نتركه في عالم الوجود، ونحن سوف نواجه هذا الإنجاز يوم القيامة. وحتى إن أنجزت أشهر رمضان القادمة بشكل جيّد لا تعوّض عن نواقص شهر رمضان الحاضر. فلكلٍّ علامة وسمة مستقلّة. الخوف من عدم إنجاز شهر رمضان بالمستوى المطلوب هو شيء متعارف لدى هؤلاء.

2. أن لا يكون مستوى تكاملنا عاليًا

ثمّ إذا كنا نبلغ أوج صلاحنا وحسننا في شهر رمضان، وعادة ما لم نحصل على حالة أفضل مما كنا نعيشها في شهر رمضان، سنحصل على أقلّ منها في غيره من الشهور، فهذه الحقيقة مما تبعث خوفًا في نفوس أولي الهمم العالية، خشية من أن يكون مستوى أوج تحليقهم وأوج إنسانيّتهم متدنّيًا، ممّا لا ينسجم مع علوّ الهمّة.

3. عدم مراعاة حرمة شهر رمضان

كلّما ازداد شهر رمضان قدسيّة ورفعة لدى محبّي الله، تصبح أهمية مراعاة حرمة هذا الشهر ومعرفة قدره مدعاة لخوفهم. طبعًا لكل من هذه الهواجس طعم خاص. وإنّ بعض هذه الهواجس كهذا الخوف ليس بمرّ ولا مكروه بل حلو وممتع. وهذا الشعور يشبه بشعور العاشق الذي يخاف على هدية حبيبه، فهو يحافظ عليها بشدّة خشية إصابتها بصدمة.

4. الشقاء

المفترض في شهر رمضان هو أن تشملنا المغفرة الإلهية، وإنها من الأهمية بمكان بحيث قال رسول الله(ص): «فَإِنَّ الشَّقِيَ مَنْ حُرِمَ غُفْرَانَ اللّهِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْعَظِيمِ» [عيون أخبار الرضا/ج1/ص295] أليس هذا يكفي لخوفنا من عدم الغفران، وعدم العفو والتكفير عن سيئاتنا وأن نخرج من شهر رمضان بنفس مساوئنا؟ وليت شعري أين تطهّر هذه الأقذار إن لم تطهّرها عين رمضان؟

5. قبول العمل

إن كان من المفترض؛ أن يكون شهر رمضان شهر عبادتنا وأن تعرض طاعاتنا وعباداتنا على محضر إله العالمين سبحانه وتعالى، أليست عظمة مقام ربوبيّته وجلاله مدعاة لخوفنا من قلة قيمة أعمالنا؟ أوليس من شأن علوّ مرتبة بارئ الخلق سبحانه وتعالى أن ترتجف قلوب عباده خوفًا من عدم قبول عملهم؟!

لماذا لا يهتمّ البعض بقبول أعمالهم؟

ترى بعض الناس إذا قاموا بعبادة ما مثل الصلاة، لا يهتمّون بعد ذلك بأنه هل رضي الله بهذه الصلاة أم لا؟ وهل رضي بصوم شهر رمضان هذا أم لا؟ مع أنهم يحملون مثل هذا الهمّ والقلق لكثير من قضايا حياتهم الأخرى. كأنهم يدعون الله، وقد سمعوا منه كلامًا شديدًا اضطرهم إلى القيام بهذه العبادة، وكأنهم يرون أن هذه العبادة على علّاتها كافية وزائدة على من أمرهم بها!

هم لا يعلمون أن الله ينظر إلى مشاعر عباده، فإذا كان أحد غير مهتمّ لقبول عمله، فهو في الواقع يقوم بأعماله كرهًا. ولا قيمة لهذا العمل عند الله بعد.

ما قيمة عبادات العبد عند الله، إذا رأى عبده يرمي عباداته صوب ربه بغير مبالاة وهو غير مهتمّ لوصولها إلى الهدف وقبولها من قبل المعبود، والحال أن المهمّ لدى الله قبل العمل وبعد العمل وفي أثناء العمل هو العبد نفسه وإقباله إلى الله وقلبه العاشق لربّه. ومن هنا ترى كم من صائم ليس له من صيام شهر رمضان إلا الجوع والظمأ.

مثل الأجير الذي فرضوا عليه حرث الأرض. فبعد أن حرث الأرض كرهًا لا ينظر إلى عين صاحب العمل باحثًا عن رضاه، بل ينظر إلى يده ليستلم أجره. وإن كان لا يتوقّع الأجر وكان يعتبر صاحب العمل ظالمًا لا يؤجره بشيء، فسوف يرمي المسحاة أمام رجله ويذهب.

هل تعملون متى نكون غير مبالين بنتيجة أعمالنا ولا يعترينا القلق من أن هل سينال عملنا رضى الله أم لا؟ أضرب مثالا قاسيا مع طلب المعذرة، لأنه بمنزلة الضربة القاضية لمن يريد أن يكون مقاومًا لهذا الكلام ولا يتأثر به.

إن دخل على بيتنا فقير مسكين، وأردنا أن نعطيَه طعامًا، فبما أنّ شخصية هذا الفقير غير مهمّة لدينا، وكنّا بصدد تقديم بعض فضائل الطعام له، عند ذلك لا نهتمّ بثمن الإناء الذي نصبّ الطعام فيه، وبأنه هل سيعجبه الإناء أم لا. ولا سيّما إن كنّا قد أعطيناه الطعام مع الإناء ولم نتوقّع منه إرجاعه. فنحن في هذا المقام غير مهتمّين باستحسان الفقير لعملنا وأسلوب ضيافتنا، بل نريد أن نعطيه شيئًا ليذهب ويبتعد.

لا شكّ في أنّ الخروج من هذه الهواجس وغيرها التي لم نُحصِها، لا يمكن إلا بمدد ربّ العالمين. كما أنّ الدخول في وادي الخوف إنما يتحقق عبر حبّ المعبود ومعرفته.

يا له من إنسان لديه علو الهمّة وبُعد النظر، وهو ذاك العبد الذي يقلق لنتيجة عمله وآخر فعله منذ البداية، ويردّد هذا الدعاء القرآني بمشاعر ممزوجة من الخوف المصحوب بالعشق والمعرفة منذ دخوله في شهر رمضان: «وَقُل رَبِّ اَدخِلنِي مُدخَلَ صِدقٍ وَ اَخرِجنِي مُخرَجَ صِدقٍ وَاجعَل لِي مِن لَدُنكَ سُلطَاناً نَصِيراً» [الإسراء/80]